بيت على ضفاف البحر الميت



قصة: سليمان الشيخ
رسوم: غسان سباعي

على الرأس الشمالي للبحر الميت، وعلى بُعد أمتار قليلة من مصبّ نهر الأردن في البحر، فوجئت بوجود مزرعة مسوَّرة بالأسلاك الشائكة، وبيت وأشجار مثمرة (تين وأعناب وبرتقال وموز وغيرها) وخضراوات يانعة.

استغربتُ وجود المزرعة في ذلك المكان، حيث ترمي الحصى فترسم دوائر على ضفاف البحر. توجّه ناظريك نحو شمال غرب البحر والمزرعة فتطل عليك أريحا، المدينة الفلسطينية المحتلّة، والمستعمرات الإسرائيلية القريبة منها.

لم تغب أنظارنا عن التلال والجبال والحقول، والسماء التي تظلّلنا. لأنّنا كنّا نتوقّع أصوات قذائف، أو هدير طائرات وغيرها التي لحسن الحظ لم نسمعها.

هدوء رائق، مستفِزّ، أسلمنا له أسماعنا، ووالينا جولتنا في المنطقة. فجأة، حضر صوت «موتور» ماء فكسر حدّة الصمت الميّت.. كان في المزرعة المجاورة، التي لفتت أنظارنا. كانت بوابتها مفتوحة. دخلناها وأخذنا نتجوّل بها، حبّات التين الخضراء كانت تلمع تحت شمس، أفلتت من بين الغيوم.

جاء رجل سبعيني يتوكّأ على عصاه. فرح بنا وأخذ يقطف لنا ما نضج من الفاكهة (خصوصاً التين).

وأخذ يُهدّئ من إلحاح أسئلتنا، واستغرابها وحماسها.. قال: عندما اشتريت قطعة الأرض هذه، وبدأت بتسويرها واستصلاحها وزراعتها مع أبنائي، فإنني كنت أعرف الأخطار التي تحوط بالمنطقة.. مع ذلك مضيت في استكمال المشروع كنوع من أنواع التحدي في حياتي، ولزرع أُمثولة التشبّث بالأرض.

ومضى في الحديث: لقد تركنا دوراً وأرزاقاً وأراضيَ في وطننا، وأنا بالنسبة لي كفاني ركضاً وتنقّلاً. أُحب أن أموت في مسقط رأسي: نابلس (إحدى المدن الفلسطينية) المدينة التي لا تغيب عن ناظريّ أبداً، وإن لم يحصل فإنني أودّ الموت هنا، وأنا أسمع حفيف أمواج البحر الميت، وعلى بُعد ٣٠ كيلومتراً من القدس.

سألنا: القدس؟

أجاب: نعم.. إن القدس بعيدة من هذا المكان ٣٠ كيلومتراً. ناولني منظاراً مُكبّراً وقال: إصعد إلى سطح البيت، وانظر إلى ناحية الشمال الغربي، فَسَترَ بيوت العيزرية البيضاء (إحدى ضواحي مدينة القدس المرتفعة).

وفعلاً، نظرت فرأيت تلالاً وجبالاً وأشجار زيتون، وبيوتاً بيضاء ظهرت كأطياف بعيدة.

أنظروا.. لقد أثمر الشجر.. على الرغم من كل الصعوبات، وثمر الأرض هو كالأبناء تقريباً، الأرض ليست عقيم إن رعيناها وأعطيناها، ورويناها عرقاً وصبراً وحناناً.

ـ لكن بعضها لم يثمر أيها الجد؟

ـ سيثمر يا بني.. ما دمت تعطي وتشذّب وتسقي، وتهتمّ وترعى.

ـ هل يراودك الأمل بأن يثمر كل ما زرعت أو أشرفت على زراعته؟

ـ أنت تجبرني يا بني على قول من قال: زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون. وتابع: إن شاء اللّه سيأكل أحفادي، قالها وهو يداعب حفيده الذي كان يشهد حوارنا .

ـ ونابلس؟

فرَّت الدمعة من عين الرجل العجوز.. وطوّح بعصاه في الهواء.. وقال حزيناً: لا تسأل عن حنين الفرد لوطنه وبيت طفولته، كأنك تشتمه عندما تسأله عن ذلك، حتى لو كان قفراً بلقعاً أو صحراء جرداء.. فإن الوطن هو الوطن.. الأعز والأغلى والأجمل والأكمل.

أحمد